توطئة:

في حزيران 1995 روت صحيفة شيكاغو تريبون Chicago Tribune أن البابا جون بول الثاني، حث الكنيسة الكاثوليكة على إمساك الفرصة الموائمة الخاصة التي قامت مع حلول الألفية الجديدة بالاعتراف «بالجانب المظلم من تاريخها»، وكان قد تساءل في عام 1994 في رسالة سرية بعث بها إلى الكرادلة، ثم تسربت إلى الصحافة الإيطالية، قائلاً: «كيف يمكن للإنسان أن يبقى صامتاً تجاه الأشكال الكثيرة من العنف التي اقترفت باسم الإيمان، والحروب الدينية، ومحاكم التفتيش، وأشكال العنف الأخرى التي مورست ضد حقوق الأفراد».

لسوء الحظ بقي الكثيرون صامتين، وأصغيت منذ عدة سنوات، وأنا مصابة بالدهشة إلى واحد من معارفي، وهو يتحدث كيف أن الكنيسة المسيحية قد احتضنت أفضل ما أنتجته الحضارة الغربية، وكيف أنها جلبت السلام والفهم والمعرفة إلى الشعوب التي اتصلت بها، وقد بدا لي أنه غير عارف بماضي الكنيسة المظلم، لذلك عزمت على إعداد عرض موجز للتأريخ للجانب المظلم من التاريخ المسيحي، وهو عرض في سبيل المساعدة على توازن المفاهيم والمبادئ التي تولت تنظيم المسيحية، وكيف تعايشت مع مبادئها التي آمنت بها وعقائدها.

ولقد افترضت بأنني سوف أجد بسهولة جميع المعلومات الضرورية لهذا العرض في محالٍّ بيع الكتب، لكن ما لبث أن أصبت بالدهشة عندما تبينت أن الموجود حول الموضوع قليل جداً، ففي الوقت الذي - بكل تأكيد - كتب فيه المؤرخون حول الجانب المظلم من التاريخ المسيحي، فإن كلامهم قد بقي جله داخل الأكاديميات، وقليلون هم الذين كتبوا حول دور المسيحية في إيجاد عالم عاش فيه

الناس وهو يشعرون بالغربة والانسلاخ والبعد عن المقدسات، فلماذا على هذا نجد كثيراً من الناس يبحثون في وقت واحد عن معان روحية أعمق، أو ليس هناك المزيد من المعلومات المتيسرة حول تاريخ المؤسسات التي من المفترض أن توصل إليهم مثل هذه الحقائق الروحية؟.

فمن دون فهم الجانب المظلم من تاريخ الديانة، يمكن للإنسان أن يظن أن الدين والجانب الروحي هما واحد، والشيء نفسه أي الجانب الروحي والدين هما واحد، ومع ذلك تمتلك الديانة المنظمة تاريخاً طويلاً جداً من البتر، وكبح الجانب الروحي، والعلاقة الشخصية والخاصة مع الرب المقدس، أو جل جلاله.

وهذا الكتاب هو ما نتج عن ذلك العرض الموجز، ومقصدي هو تقديم - ليس صورة كاملة للتاريخ المسيحي - بل الجانب المظلم منه فقط، الذي آذى الكثيرين جداً، وألحق ما لا يحد من المضار بالجانب الروحي، وأنا لا أنوي مطلقاً التقليل من شأن الأعمال الجميلة التي قدمها ما لا يحصى من الرجال والنساء في سبيل المساعدة الصادقة للآخرين، ومن المؤكد أيضاً انعدام النية في تقديم هذا الكتاب بمثابة دفاع أو عطاء لأي دين آخر.

هيلين إيليربي.

شباط 1996.

مُدْخَل:

تركت الكنيسة المسيحية تراثاً، ونظرة عالمية، غطت كل جانب من جوانب المجتمع الغربي، في كل من الناحيتين الدينية والدنيوية، ورعى هذا التراث: الجنس، والعرق، وعدم التسامح تجاه الفوارق، وانتهاك الأطر الطبيعية المحيطة، وأظهرت الكنيسة وعرضت في كثير من تاريخها عدم تقدير للحرية الإنسانية، والكرامة، وتقرير المصير ذاتياً، ولقد حاولت الإشراف والتحكم، واحتواء، وحبس الجانب الروحي، والعلاقة بين الفرد والرب، ونتيجة لذلك ساعدت المسيحية على إيجاد مجتمع الناس فيه غرباء ليس فقط عن بعضهم بعضاً، بل عن المقدس أيضاً.

وهذه المسيحية التي دُعِيَتْ بالأرثوذكسية (المسيحية القويمة)، هي متجسدة بالإيمان بواحد ذكر، رب صاحب سلطان، يتطلب طاعة عمياء، وهو يعاقب المتمرد من دون رحمة، وتعتقد المسيحية القويمة بأن الخوف ضروري وأساسي من أجل تمتين ما اعتقدوه أنه نظام طبقي متدرج له السمة اللاهوتية، فيه يحكم الرب اللاهوتي فردياً من مكان شاهق، بعيداً جداً ونائياً عن الأرض وعن جميع بني البشر.

وفي الوقت الذي مثلت فيه المسيحية القويمة من مجموعات كثيرة من العقائد المسيحية، فإن المسيحيين الذين أداروا دفة السلطة السياسية، وقاموا بتبنِّيهمْ لمسيحيتهم، بتقديم الالتماس إلى الحكومة الرومانية، فربحوا سلطة لا نظير ولا سابق لها ومثل ذلك الامتيازات، وأصبحت كنيستهم تعرف باسم «الكنيسة» ومكنتهم السلطة التي حصلوا عليها حديثاً من فرض الطاعة لممارساتهم، والتنكيل بالذين رفضوا الطاعة، وإنه على كل حال طلب من الكنيسة أن توضح الذي هو عقيدتها وشريعتها وما تؤمن به، وأن تحدد تماماً ما الذي كان هرطقة والذي لم يكن،

وبفعلها ذلك اختارت بإصرار واستمرار العقائد والشرائع التي أيدت إشرافها وتحكمها بالفرد والمجتمع.

وما أنْ أخذت الكنيسة بزمام القيادة في أوربا، وما أن سقطت الامبراطورية الرومانية، حتى قامت هذه الكنيسة بإزالة جميع أنواع التعليم، والتقنيات، والعلوم، والطب، والتاريخ، والفن، والتجارة، وجمعت الكنيسة وكدست ثروات هائلة، وذلك عندما غرق بقية المجتمع في العصور المظلمة، ثم عندما قامت التغييرات الاجتماعية المثيرة بعد نهاية الألفية الأولى بجلب نهاية إلى حقبة العزلة قاتلت الكنيسة للحفاظ على تفوقها وسيطرتها، وحشدت حولها بازدياد المتمردين في المجتمع ضد الأعداء المتصورين، وأثارت الحروب ضد المسلمين، والمسيحيين الشرقيين الأرثوذكس، واليهود، وعندما أخفق الصليبيون في إخضاع المتمردين، صرفت الكنيسة قواها ووجهتها ضد المجتمع الأوربي نفسه، حيث أقلعت بحملات وحشية ضد جنوب فرنسا، وأقامت محاكم التفتيش.

وكان الذي فعلته الحروب الصليبية، لا بل حتى قرون من محاكم التفتيش قليلاً في تعليم الناس فهماً صحيحاً للمسيحية القويمة، والذي فعل هو حركة الإصلاح الكنسي المضادة وأنجزته، ففقط خلال الإصلاح الكنسي تعلم سكان أوربا وتبنوا أكثر من القشرة الزائفة للديانة والتصور العام أن العالم المادي كان متجسداً مع حضور الرب، ومع السحر حل محله خلال الإصلاح الكنسي، اعتقاد جديد هو أن المساعدة اللاهوتية لم تعد ممكنة، وأن العالم المادي عائد فقط إلى الشيطان، ولقد كانت هناك ثلاثمائة سنة من الإحراق بالنار مورست ضد من تجرأ على الاعتقاد بوجود مساعدة لاهوتية، وأخيراً ضمن السحر عملية تحويل أوربا إلى المسيحية القويمة.

وبإقناع الناس بأن الرب يعيش منفصلاً عن العالم المادي، أرست المسيحية - ربما بدون فهم - الأساس للعالم الحديث، وهو عالم يعتقد أنه آلي، وغير محكوم بقدر، عالم الرب فيه بعيداً جداً، وهو خالق غير متجسد، وصار الناس يعزون

مشاعر عجزهم ليس إلى طبيعتهم الإنسانية المذنبة بقدر عزوه إلى عدم أهميتهم في مثل هذا العالم، ومتنت نظريات العلماء والفلاسفة مثل: اسحق نيوتن، ورينه ديسكارت Rene Descartes، وشارل داروين، عقائد المسيحية القويمة، مثل الاعتقاد بحتمية الصراع وضرورته من أجل التحكم والسيطرة، وتبرهن الآن أن مثل هذه العقائد - على كل حال - ليس فيها فقط معيقات جادة وجذب إلى الوراء، بل إنها أيضاً علمياً محدودة.

وكان للمسيحية القويمة أيضاً أثرها المدمر على العلاقة البشرية بالطبيعة، فعندما بدأ الناس يعتقدون بأن الرب أقصي عن العالم المادي وهو مزدر له، فقدوا احترامهم للطبيعة، وأيام العطل التي ساعدت الناس على دمج المواسم والفصول في حياتهم، تبدلت إلى إحياء ذكريات وقورة لحوادث توراتية لا علاقة لها بدورات الأرض وتبدل مفهوم تصور الوقت، ولم يعد أبداً مرتبطاً بدوران الفصول، وظهر علم نيوتن وهو يؤكد أن الأرض لم تكن سوى نتيجة حتمية للعملية الآلية لصراعات لا واعية، وقد أكد هذا أن الأرض تعوزها القداسة.

ويمكن للجانب المظلم من التاريخ المسيحي أن يساعدَنا على فهم فصم ارتباطنا بالمقدس، ويمكن أن يعلمنا حول العبودية الأكثر غدراً وتدميراً: السيطرة على الناس من خلال الإملاء وكبح روحانيّتهم، ويمكن لهذا الجانب المجهور من التاريخ أن ينير الأفكارَ والعقائد التي رعتْ تشويه الحقوق الإنسانية، وعدم التسامح مع الفوارق، وانتهاك قدسية المحيط الطبيعي، وما أن ندرك هذا حتى يمكننا منع مثل هذه العقائد من الاستمرار في إحداث مثل هذا الدمار مرة ثانية، وعندما نفهم كيف حدث وفصلنا عن المقدس، يمكننا أن نشرع ليس فقط في معالجة ندوب الجراحات، بل الشفاء من الغربة نفسها أيضاً، والمعافاة منها.